رأي في :

تنازع البقاء

وفناء الاصلح

لنقولا الحداد

يريد الاجتماعيون الدروينيون ان يطبقوا سنة «تنازع البقاء» على الانسان الاجتماعي، على الرغم من ان الاجتماع والتنازع على العموم ضدان لا يجتمعان . وانما الاجتماع والتضامن يتفقان . او ان التضامن اساس الاجتماع

الانسان حتى اليوم اجتماعي غير تام الاجتماعية . لم يزل «منازعيًا» . في المجتمع الواحد او الجماعة او الامة الواحدة لا يزال الافراد يتنازعون كثيراً من الامور ويختصمون لاجلها، والا لما كان لزوم للقضاء ولقوة الشرطة . ومع ذلك فالقضاء والشرطة لا يمنعان التنازع منعاً باتًّا ولا سيما في الشؤون الاقتصادية . بل ان القضاء القانوني يؤيد على العموم طمع القوي بالضعيف

النظام الاجتماعي التام يقضي بان يكون للحق السلطان الاتي ، وان تكون القوة خادمة له . ولكن النظام الحالي لا يزال يضع القوة فوق الحق ، لانهُ بحسب هذا النظام يستغل المتمول جنى العامل ويشتم الثري منتهى التمتع على حساب الفقير المتقشف . والقانون — اذا استثنينا بعض التحوُّل الحديث — يؤيد هذا الاستغلال ويحميه بحجة حرية المعاملة الاقتصادية

وحاصل ما تقدم ان النظام الاجتماعي لا يزال ضعيفاً أو بالاحرى ناقصاً . على أن الاجتماعيين الدروينيين يعدُّون هذا النقص طبيعيًا لا مندوحة عنه . ولا بد من بقائه لان « تنازع البقاء » سنة طبيعية . ولكنهم لا يستطيعون ان يعطلوا التعاون والتضامن الاجتماعيين الظاهرين في كثير من الاحوال الاجتماعية لما فيها من مناقضة سنة « تنازع البقاء »

والحقيقة ان النظام الاجتماعي المبني على التعاون والتضامن والناقض لسنة التنازع الدروينية سائر بافراد في سبيله الى ان يبلغ يوماً من الايام حد التمام ، وينقلص من امامه ظل التنازع تقلصاً تامًّا فيصبح الناس كلهم جماعة واحدة متعاونة في الحياة كتعاون الخلايات الحيوية في جسم الحي من غير تنازع فيما بينها . ذلك لان ناموس التطور لا يقف عند حد متى اتخذ لسعاً

ذلك هو الامر بين الافراد في جماعة او في امة واحدة . وأما الجماعات بعضها بازاء بعض فلم تزل خاضعة لسنة تنازع البقاء . على ان العقل الانساني الذي ادرك ان ناموس التضامن

(القائم بين كثير من الحيوانات كما هو معلوم انما هو لمصلحة البقاء ، يفهم ان التضامن الاجتماعي بين الافراد والجماعات أصلح لبقاء النوع الانساني من ناموس التنازع

أما في الجماعة الواحدة فقد وضع نظام القضاء لتأييد هذا التضامن الى حد ما كما تقدم القول. ولسوف يؤيده كل التأييد. وبهذا تتوافر سعادة البشر وبه تسلم الجماعة من الفناء

وأما في الجماعات فالمفروض ان النظام الحربي هو الذي يكفل البقاء لجانب الاقوى بحسب سنة تنازع البقاء. وهذا ما يعنيه الآن حزب الدروينيين الذين يريدون ان يطبقوا تطور المجتمع الانساني على وفق سنة التطور الدروويني. فلتر الآن هل الحرب (او تنازع الجماعات) تفضي الى بقاء الاصلح او الانسب كما تقول سنة داروين ؟

لماذا هذه الحرب ؟

لماذا هذه الحرب ؟ ولماذا الحرب التي سبقتها ؟ ولماذا كل حرب في التاريخ ؟

يجاوب هتلر عن السؤال الاول في ما يجاوب : « نريد استرداد مستعمراتنا لاننا لا نستطيع ان نعيش بدونها ، وبلادنا ضاقت بنا » واذا سألناه : كانت مستعمراتكم لكم لم ينازعكم اياها منازع قبل الحرب الماضية المسماة بالحرب الكبرى . فلماذا ابتغيتم الحرب حينئذ على الرغم من سعي الدول الاخرى ان تمنعوا عنها ؟ ماذا كان غرضكم منها ؟

لا يستطيع هتلر ان يجاوب عن هذا السؤال لان فيه مكتوم دون الحقيقة . والحقيقة هي انه يريد ان تاتيه اماليا كل دول اوربا وكل مستعمراتها وتستعبدها وتستغلها لنفسها ، لان تيتشي علّم الالمان نظرية السوبرمان . وغلبوم قرّر في اذهانهم ان الالماني هو السوبرمان

هذه هي الحقيقة التي نوّه بها هتلر واعرابه تنويهاً غير مباشر . واذا خلوت به او بمن يعبر عن الروح النازية وطلبت منه ان يصدقك الخبر اليقين قال لك : ان هذه الحرب امر طبيعي ، هي سنة تنازع البقاء وبقاء الاصلح . فاذا تصرنا كما أقوى الامم طرّاً وأقوى الامم هي أصلحها » . واذا سألته : « الاصلح لمن ؟ او الاصلح لماذا ؟ » فماذا يجيب ؟

لا أدري ماذا يجيب . لعله يجيب « إن نظام النازي هو الاصلح للعالم كله . » ولكن رجال نعالم كله يعقلون ويفهمون كما يفهم النازيون . فهل يؤمنون على هذا القول ؟

هذه هي المسألة التي فيها الضر ، والتي لا يحلها الا الحرب . والا لاتحدت بقناع العالم كله بان النازية بركة من الله للجنس البشري — ويسلم العالم بها من غير حرب

دعنا من تفسير « الاصلح » ولنعد الى تفسير « تنازع البقاء » أصلح او غير أصلح . أحقيقي ان اقوى الامم في ساحة التنازع هي الامة التي تبقى ؟ هذا هو بيت القصيد . فلتر

لنعود الى التاريخ الطبيعي . اين ذهبت تلك الحيوانات الضخمة التي كان لواحد منها

بزد مئات الاطنان كالديناصورس ولم يبقَ منها الاَّ آثارها الجيولوجية ؟ كيف انقرضت وبقي بعدها الفيل والاسد والنمر والدب والثور والجمل والحمار والجواد الخ

ألا ترى الآن ان الحيوانات الضارية كالاسد والنمر والدب الخ اخذت تنقرض ؟ أوَلا ترى ايضاً ان اشباه الانسان — الاوران اوتان والشمبنزي والغورلا — شرعت تبيد أيضاً وبقيت بعض الحيوانات والحشرات والمكروبات ، وبقي الانسان ؟ وجميع هذه أضعف من أشباه الانسان ومن الوحوش الضارية ؟

دعنا من التاريخ الطبيعي ولنلقِ نظرة عامة على تاريخ الامم والشعوب . كانت الأمة اليونانية امة حربية عظيمة في عصرها فأفنتها الحروب الى ان سقطت تحت سلطان مقدونيا وكانت الامبراطورية الرومانية اعظم دولة حربية وأقوى الدول في زمانها . وكانت جديرة بالبقاء ، اذا كان البقاء نصيب الأقوى . فما بقيت بل بادت وبقيت بعدها الامم الصغيرة التي كانت هي تنازعها بقاءها . والتاريخ حافل بالشواهد على هذا

العالم تغير في كل امر . وأساليب الحرب تغيرت تغيراً عظيماً كما هو معلوم . فلنرَ هل هذه الاساليب الحربية الجديدة تكفل البقاء لأقوى الأمم ؟ (لاصلح الأمم اذا كانت الصلاحية في القوة)

السياسة في التسلح

بعد الحرب الاخيرة المسماة بالكبرى جرد الحلفاء ألمانيا من سلاحها لكيلا يفطروا ان يرهقوا الامم بالتسلح لأجل انقاء عدوانها ، وعقدوا المؤتمرات لتقرير خفض السلاح والكف عن التسلح . وربما كانت انكلترا أصدق الدول في العمل بمقتضى القرارات . ولكن ما لبثت المانيا ان شرعت تتسلح سرًّا . وما خطر للحلفاء ان يكون تسلحها السري هائلاً كما ظهر بعدئذ

ومتى جعل جارك يتسلح أوجست منه شرًّا لأنك لا تفهم لتسلحه سبباً او قصداً الاَّ انهُ يبغي الهجوم عليك . واذا حلف لك الف يمين انهُ لا يقصد بالتسلح الاَّ الدفاع عن نفسه فلا تصدقه لأنك تعلم انهُ ليس له جار غيرك . وأنت لا تنوي الهجوم عليهِ وليس في تصرفك ما يدل على هذه النية . فتعتقد انهُ يقصد الهجوم عليك لا الدفاع عنك . فلا ترى بدًّا من ان تتسلح بحجة الدفاع عن النفس . وهو معذور بان لا يصدق أن تسلحك للدفاع فقط لا للهجوم . وكذلك تتنافسان في التسلح الى ما لا نهاية له وكل منكما يتعمد الدفاع او يدعي انهُ يريده حتى اذا توسم احدكما انهُ صار اقوى من الآخر هجم عليهِ على الرغم من انهُ يروي الدفاع او انهُ يرصهُ زعماً ، لأن السياسة الحربية هي ان الضربة ان سبقت ، والهجوم الاسبق

هو خير حفظ الدفوع . فالاستعداد للحرب اذن افضل الى شعوب الحرب على كل حال سواء أكان الدفوع ام للهجوم . الحرب وقعت فماذا تكون نتيجتها ؟ هل بقاء الخصم الاقوى او الاصلح ؟

لا والله . ستكون النتيجة فناء الاثنين جميعاً . كيف ؟ فلنر

كانت ميزانية الحرب عند انكلترا في كل من السنتين الماضيتين نحو ٣٦٠٠ مليون جنيه أو تزيد . وميزانية الولايات المتحدة الاميركية في هذا العام ٣٦ الف مليون دولار والغالب انها تبلغ ٤٢٠٠ مليون. ليس في الامكان الآن احصاء نفقات الدول الحربية بالجنيهات والدولارات. وانما يمكن القول بالاجمال ان معظم مجهودات الالمان والطليان في العشرين السنة الماضية كانت منصرفة الى التأهب الحربي . فكان الشعب هناك وهنالك يشتغل ساعات اكثر من ساعات العمل المقررة في اليوم أو الاسبوع ولكنه لم يكن يعيش مترفهاً على قدر ما يشتغل . فكانت درجة المعيشة منحطة ودرجة الجهاد في العمل مرتفعة في كل مدة زعامة هتلر وزعامة موسوليني . والراجح ان الامر كان كذلك في اليابان . وربما كان ما يشابه ذلك في روسيا وبولندا وتشكوسلوفاكيا منذ ظهر نشاط المانيا وايطاليا في التسلح . وكان شيء من ذلك في سكندينافيا والبلقان

فبالاجمال يمكن القول ان اوربا عموماً قضت السنوات العشر الاخيرة في الاستعدادات الحربية الهائلة . وكان ناسها يكدون ويكدحون بكل ما لهم من قوة في صنع الآلات والادوات التي يقتلون بها بعضهم بعضاً ويدمرون بها معاملهم وصروحهم وحصونهم وسفنهم وطياراتهم وكل ما يصنعونه وينتجونه وكل ما ولدوه من غلهن . ولو كان في الوسع احصاء قيمة تلك المجهودات الآن لبلغت مئات الوف الملايين من الجنيهات . ويمكن القول إن تلك المجهودات كانت ضعفي مجهودات الناس في مدة السلم . وكان عمم الناس نصف عملهم في مدة السلم. اي ان الناس كانوا ينفقون عن انفسهم ربع مجهودهم والثلاثة الارباع الاخرى موجهة الى الحرب : الى الهلاك والدمار والفناء . ولو انفقوا جميع ما جنوه عن انفسهم لعاشوا جميعاً عيشة اليسر والرخاء

فهل عندك لفظة توصف هذا التصرف افضل من لفظة (جنون)

هذا فيما مضى قبل الحرب وأما في أثناء هذه الحرب فقد تضاعف الجهاد حتى انه لم يعد الفرد يملك وقته او قوته او حريته في الانتاج بل هو مضطر ان يكون جسداً وعقلاً وروحاً اداة في نظام التسلح كما يكون الجندي آلة في نظام الجيش . وسيستمر هذا النشاط في التسلح الى ان تستنفد القوى والموارد اللازمة له . ولذلك لم يعد في الامكان التحقيق اي الجانبين أرجح سلاحاً وأكثر استعداداً وأقوى قتالاً . وأصبح النصر اخيراً معقوداً ليس لأوفر الجانبين عتاداً وجنوداً فقط بل للجانب الذي يمتاز باعتبارات اخرى جغرافية واجتماعية وسياسية

وروحية وأدبية الخ . ايضاً . وهيهات ان ينعقد النصر لاحد الفريقين قبل ان تمحق هذه القوات الهائلة المجتمعة محقاً تامًّا وتذهب تلك المجهودات العظيمة في هذه السنين الطويلة هباءً في الهواء وفي الغبراء وفي لجات الماء . وماذا يكون صافي الحساب حينئذ ؟

صافي الحساب

لو عمل هتلر حسابه لوجد انه أنفق في هذه الحرب مائة ضعف ثمن المستعمرات التي يحارب لأجل استردادها . ومع ذلك فقد لا يستطيع استردادها لا بحرب ولا بسلم . ولا يستطيع ان يملك الممالك الاوربية التي احتلها مهما تكن نهاية الحرب . بل سلبق بولندا للبولنديين وفرنسا للفرنسيين وبلجيكا للبلجيكيين وهولندا للهولنديين الخ . وهم في بلادهم أحرار . ويمكن ان تكون المستعمرات الالمانية وغير الالمانية لكانها . ولا تبقى مستعمرات لواحدة من الدول . ولو اقتصر الامر على ضياع تلك المجهودات الحربية في الهواء والغبراء والماء فقط لقلنا « جنون وكان . فلا يعاد » وقد يعوض هذا الخسران مع الزمان . ولكن الارواح ؟ كم مليون تلتهم الحرب منها ؟

اذا طالت الحرب فالارجح انه لا يبقى من شبان هذا الجيل الاّ النزر القليل . ومن الكهول والشيوخ الضعيف والعليل . واذا حمي وطيسها واشتد اوارها وغص جلد السماء بدخانها وطيب نارها فلا يبقى من معالم المدنية الحالية الاّ آثارها . وأهل العلم الذين يُعَدّون بناة المدنية يقرضون مع المقرضين . وقد شرع هتلر باضطهادهم ومحقهم منذ بايعهُ حتى النازيين صولجان الحكم . وقد شاهدنا في هذه السنوات علماء واساتذة (بروفسور) جنوداً بسيطين يحملون على عواتقهم الاثقال وكانوا احرياء بان يُحمَلوا على الكواهل والرؤوس . وفي الحرب الماضية قتل شاب علاّمة عظيم في معركة فاليو بولي هو موزلي مكتشف الرقم الذرّي . والله اعلم كم قتل غيره من ذوي الادمغة المفكرة التي كانت تشتغل في بناء المدنية . فاذا طالت الحرب ومحقت رجال هذا الجيل فقد تنقرض المدنية الحالية برمّتها ولا يبقى من اهل العلم من يبني المدنية الجديدة . فاذا نعم اذاً الشرذمة المنتصرة ؟ أ اطلالاً بالية ورسوماً دارسة ؟

أهذا هو « بقاء الاصلح » الذي تتنازع الامم المحاربة ؟ ام هو « البقاء » الذي تطمح اليه الدول المتنافسة في التسلح والعائصة في دماء التقتيل والتدمير ؟

لا لا . ما كان تسلح القوي واندفاعه في القتال ليضمن له البقاء مهما يستقو ويتكبر ويستفحل ويتجبر . وما عاقبة القتال الاّ الفناء والاضمحلال على كل حال . ولا يضمن البقاء للجنس البشري الاّ السلم . فاذا لم توفق الامم الى توطيد السلم على قاعدة اتحادها العام فالمدنية الحالية معرضة لا محالة في هذه الحرب او في حرب بعدها او بعدها او بعدها . والسلام على من اتبع الهدى